Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo

الأدب العربي- البرازيلي: معلقة ألبرتو موسى وحوار الجنوب-الجنوب / Arab-Brazilian Literature: Alberto Mussa's Arabian Ode and South-South Dialogue
Author(s): Waïl S. Hassan and وائل حسن
Source: *Alif: Journal of Comparative Poetics*, No. 31, The Other Americas / أمريكا الأخرى (2011), pp. ٢١٥-٢٢٩
Published by: Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo and American University in Cairo Press
Stable URL: http://www.jstor.org/stable/23216068
Accessed: 31/03/2013 19:49

Your use of the JSTOR archive indicates your acceptance of the Terms & Conditions of Use, available at http://www.jstor.org/page/info/about/policies/terms.jsp

JSTOR is a not-for-profit service that helps scholars, researchers, and students discover, use, and build upon a wide range of content in a trusted digital archive. We use information technology and tools to increase productivity and facilitate new forms of scholarship. For more information about JSTOR, please contact support@jstor.org.

Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo and American University in Cairo Press and *Department of English and Comparative Literature, American University in Cairo* are collaborating with JSTOR to digitize, preserve and extend access to *Alif: Journal of Comparative Poetics.*

http://www.jstor.org

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

الأدب العربي-البرازيلي:
معلقة ألبرتو موسى وحوار الجنوب-الجنوب

وائل حسن

إذا كان العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحالي قد تميزا بهيمنة الولايات المتحدة السياسية والعسكرية في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي، وإذا كانت هذه الهيمنة قد تمثلت عسكرياً في حربي العراق وإيديولوجياً في نظرية «صراع الحضارات» لصامويل هنتنجتون Huntington، فلا بد من الأخذ في الحسبان أيضاً الجهود السلمية العديدة والمتنوعة لمقاومة تلك الهيمنة وتقويضها. من تلك الجهود مبادرة الرئيس البرازيلي لويز إيناسيو لولا دا سيلڤا لعقد القمة الأولى للدول العربية ودول أمريكا اللاتينية في العاصمة البرازيلية برازيليا في شهر مايو ٢٠٠٥، وقد هدفت القمة إلى تنشيط التعاون ودعمه بين دول المنطقتين في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والبيئية والعلمية والتقنية.(١) تبع لقاء القمة الأول ذلك العديدُ من الاجتماعات على مستوى وزراء الخارجية والاقتصاد والثقافة وغيرهم، ثم لقاء القمة الثاني لرؤساء الدول المعنية في الدوحة في مارس ٢٠٠٩، ومن المنتظر أن تعقد القمة الثالثة في ليما بپيرو في فبراير ٢٠١١. ولعل من شأن نجاح هذه الجهود على المدى الطويل إنشاء جبهة موحدة تضم منطقتين تعرضتا لبأس الاستعمار الأوروبي في الماضي والإمبريالية الأمريكية في الحاضر.

ومن منطلق آخر، يمكن القول إن حوار الجنوب–الجنوب هذا الذي يعمد إلى التحرر من الإمبريالية الغربية وإضعافها، وإن كان تبلور في ظل ظروف استراتيجية معينة، يعبِّر في الوقت نفسه تعبيراً تأخر – إلى حد بعيد – عن علاقات ثقافية وتاريخية قديمة. وتعود تلك العلاقات في الواقع إلى القرون الثمانية التي تأصلت فيها الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرت تأثيراً بالغاً في ثقافات أسبانيا والبرتغال التي طغت على أمريكا اللاتينية في أعقاب رحلة كولومبوس التاريخية في ١٤٩٢. وبعبارة أخرى، لا تزال ثقافة أمريكا اللاتينية المعاصرة تعكس ذلك التراث العربي القديم، كما تشير الكاتبة المكسيكية ڤيرونيكا

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

مورجيا Verónica Murguía في مقالة لها بعنوان «أجدادي المجهولون» "My Unknown Forefathers"، علماً بأن أسرتها لا أصول عربية لها. ويقرأ طلبة المدارس، في المكسيك، في كتبهم الدراسية عن ذلك التأثير العربي المباشر الذي خلف أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية في اللغة الأسبانية، فضلاً عن إنجازات الحضارة العربية في مجالات العمارة والرياضيات والأدب وخلافه، مما يشكل جزءاً من ثقافتهم المعاصرة.

أما عن الروابط بين الأدب العربي وآداب أمريكا اللاتينية فهي كثيرة ومتشعبة، وإن كانت لم تحظَ حتى الآن بالعناية التي تستحقها من علماء الأدب والنقد. وبالإمكان تصنيف هذه الروابط إلى أربعة أنواع على النحو الآتي:

أولاً، هناك تأثير مباشر جاء من كتاب **ألف ليلة وليلة** منذ ترجمته إلى الفرنسية في القرن الثامن عشر، وترجمته إلى الإنجليزية في القرن التالي، ومنها إلى معظم اللغات الأوروبية الأخرى، وعلى سبيل الذكر، لا الحصر، الاهتمام الكبير الذي أبداه الكاتب الأرجنتيني خورخي لويز بورخيس Borges بـ**الليالي**، حيث كتب عنها وعن مترجميها، كما ينعكس أسلوبها وعالمها الخاص انعكاساً واضحاً في قصصه، وفي كتابات العديد من أدباء أمريكا اللاتينية الآخرين المنتمين إلى ما يُسَمَّى «الواقعية السحرية»، وعلى رأسهم جابرييل جارسيا ماركيز García Márques.(٢)

ثانياً، أثرت أمريكا اللاتينية بدورها (وأمريكا الشمالية أيضاً) في تطور الأدب العربي الحديث، وبخاصة الشعر، عن طريق المهاجرين العرب الذين وفدوا إلى الأمريكتين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعُرفوا في مجملهم بشعراء المهجر. وبطبيعة الحال، فإن هؤلاء الشعراء المجددين تأثروا بالثقافات السائدة في المجتمعات التي اتخذوها موطناً لهم، وكتاباتهم وإن كانت باللغة العربية فهي قد تشبعت بقليل أو كثير من هذه البيئات الجديدة.

ثالثاً، هناك أيضاً نتاج المهاجرين العرب الأدبي باللغات الإنجليزية والفرنسية في أمريكا الشمالية، وبالأسبانية والبرتغالية في دول أمريكا اللاتينية. ويشتمل ذلك الأدب أيضاً على كتابات الأدباء المنحدرين من أصل عربي، أيْ أبناء المهاجرين العرب وأحفادهم، أو من يُسَمّون أبناء الجيل الثاني والثالث للجالية العربية في الأمريكتين، من أمثال ميلتون حطوم Milton Hatoum، سليم ميجيل Salim Miguel، جورج مدور George Medawar، ألبرتو موسى Alberto Mussa، رضوان نصار Raduan Nassar، والي سالماو Waly Salomão، كارلوس نجار Carlos Nejar، لويس نصيف Luis Nassif، علي

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

كامل Ali Kamel، لويس فياض Luis Fayad، جريجوري منصور Gregory Mansour، وخوان كارلوس سائر Juan Carlos Saer، وغيرهم في أمريكا اللاتينية.[٣] ولهؤلاء الكتاب قصص وروايات وأشعار تتحدث عن تجربة المهجر، وعن نشأة الأجيال الثانية والثالثة للجالية العربية في عدد من دول أمريكا اللاتينية. ولا تزال هذه الأعمال الكثيرة في مجملها غير مترجمة إلى العربية.

ورابعاً، هناك أيضاً كتاب عديدون غير منحدرين من أصول عربية، ولكنهم ألفوا أعمالاً أدبية تحتوي على شخوص أو موضوعات عربية أو كليهما. وقد سبق ذكر بورخيس وجارسيا ماركيز أعلاه، ويمكننا إضافة أسماء جورجي أمادو Jorge Amado، باولو كويليو Paulo Coelho، آنا ميراندا Ana Miranda، ملبا طحان Malba Tahan (الاسم الحركي لأستاذ الرياضيات جوليو سيزار دي ميلو إي سوزا Júlio César de Mello e Souza)، أنجيلا دوترا دي مينيزيز Angela Dutra de Menezes، ألبرتو روي سانشيز Alberto Ruy-Sánchez، وڤيرونيكا مورجيا. وسأعود إلى الحديث عن بعض هؤلاء لاحقاً.

تحدد هذه الجوانب الأربعة للعلاقات الأدبية بين العالم العربي وأمريكا اللاتينية مجالاً خصباً، وإن كان غير مطروق، للدراسات الأدبية، وبخاصة الدراسات المقارنة، التي من شأنها توسيع الأفق الثقافي وتقويض سطوة ما يُسَمَّى بالتمركز المعرفي حول أوروبا Eurocentrism الذي عرَّفه سمير أمين في كتابه *L'eurocentrisme*. والحقيقة أن المشروع المعرفي المعاكس لتقويض ذلك التمركز قد تأصل حتى في بعض المدارس الفلسفية والنقدية في الغرب نفسه، وعلى رأسها تفكيكية جاك دريدا Jacques Derrida ونزعة ما بعد الاستعمار Postcolonialism – أيْ دراسات فترة ما بعد الاستعمار الأوروبي – التي تصدَّرها إدوارد سعيد، وكلاهما مذهبان شديدا التأثير في النقد الأمريكي المعاصر. وإن كانت نزعة ما بعد الاستعمار قد عززت – بغير قصد – مركزية أوروبا عندما ركزت اهتمامها على الحوار الجدلي بين المستعمِر والمستعمَر، على حد رأي إعجاز أحمد Aijaz Ahmad وغيره، فإن حواراً مباشراً بين ثقافات العالم الثالث، أيْ حوار الجنوب–الجنوب، من شأنه تهميش أوروبا معرفياً وتوثيق علاقات ثقافية هي أصلاً موجودة، وإن كانت مهملة في العالم العربي وفي أمريكا اللاتينية (Ahmad، ص ص ٦–٧). ولا شك أن ذلك يطابق أهداف قمة هذه الدول.

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

لا يمكن، بطبيعة الحال، مناقشة ذلك النتاج الأدبي الغزير بمحاوره الأربعة هنا، ولذلك سأكتفي بعرض بعض أعمال كاتب واحد من البرازيل، ألا هو ألبرتو موسى الذي ينتمي إلى المحور الثالث. وُلد هذا الروائي والباحث في مدينة ريو دي جانيرو في ١٩٦١، وله حتى الآن ستة كتب. أول أعماله المنشورة كان مجموعة بعنوان **إليجبارا** *Elegbara* (١٩٩٧) تدور قصصها حول الشخصية المهمة التي لها الاسم نفسه في أساطير غرب أفريقيا ودياناتها، وتلتها رواية **عرس الملكة جينجا** *O trono da rainha Jinga* (١٩٩٩)، وهي رواية تاريخية عن العبيد السود في ريو دي جانيرو في القرن السابع عشر. أتبع ألبرتو موسى هذين العملين اللذين يدوران عن أفريقيا وعلاقتها بالبرازيل بكتابين آخرين عن الأدب العربي هما رواية **لغز القاف** *O enigma de Qaf* (٢٠٠٤) التي تدور حول شاعر جاهلي خيالي، والآخر هو ترجمة للمعلقات إلى اللغة البرتغالية *Os poemas suspensos* (٢٠٠٦). تلا ذلك رواية **الحركة البندولية** *O movimento pendular* (٢٠٠٦) التي يدور موضوعها عن العلاقات العاطفية الثلاثية، وفيها يتضح اهتمام ألبرتو موسى بكثير من الثقافات والحضارات القديمة بدءاً من الفراعنة والآشوريين واليونانيين وغيرهم. وأخيراً نشر ألبرتو موسى كتاباً أنثروبولوجياً عن أساطير سكان البرازيل الأصليين وعنوانه **قدري أن أكون يغورا** *Meu destino é ser onça* (٢٠٠٩).

وواضح من هذا الاستعراض اهتمام الكاتب الشديد بالروافد الثقافية شبه المهملة التي اندمجت مع الثقافة البرتغالية فكوّنت المجتمع البرازيلي المعاصر. فالثقافة الأفريقية حملها العبيد أثناء فترة العبودية التي دامت في البرازيل من ١٥٥٠ إلى ١٨٨٨، وأثرت تأثيراً هائلاً في جميع نواحي الحياة الثقافية والفنية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية هناك. أما ثقافة السكان الأصليين المعروفين بالتوبينامبا Tupinamba، أو التوبي اختصاراً، والثقافة العربية التي حملها المهاجرون العرب إلى البرازيل، فتأثيرهما أقل قوة من التأثير الأفريقي، ولكنه مع ذلك تأثير خاص اهتم به الكاتب اهتماماً شديداً، وبخاصة أن له أجداداً من العرب ومن البرازيليين الأصليين.

في مقالة بعنوان «من هذا في المرآة؟» "Who is Facing the Mirror?" يحكي ألبرتو موسى قصة بحثه عن جذوره العربية الممتدة من جانب الأب والجد إلى لبنان. أما جانب الأم فيمتد إلى جذور عديدة، بعضها يعود إلى التوبي. وتدور المقالة حول انعكاسات هوية ألبرتو موسى

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

العربية المتضاربة التي كانت أشبه بلغز يستعصي عليه حله في بداية حياته. يقول:

> في بداية فترة مراهقتي عرفت أني منحدر من أصل عربي عن طريق أبي، ومنذ هذا الوقت وأنا أحاول أن أفهم بالتحديد تلك الصفات التي تختلف عن الشطر البرازيلي الذي ورثته عن أمي. كان من السهل عليّ أن أفهم أن هناك شيئاً فريداً يميز أسلوب الوجود العربي؛ لأن كل مَن عرف من الناس أنني حفيد لجدٍّ عربي حاول استقراء ذلك الأسلوب في شخصي. (ص ١٨٩)

هكذا نرى أن الهوية العربية–البرازيلية ارتبطت بمفهوم اجتماعي عام عن الكينونة العربية واستقرائها في طباع أو تصرفات يُتصور أنها موروثة. لذلك، كان الاهتمام بمسألة الهوية رد فعل لذلك المفهوم الاجتماعي الذي عبَّر عنه الآخرون في علاقاتهم معه. يستطرد ألبرتو موسى قائلاً إنه شرع في البحث عن هويته في ثلاث مرايا عكست له «الصورة التي كونها البرازيليون عن العرب، والصورة التي كونتها أسرتي عن نفسها، والصورة الموجودة في الكتب» (ص ١٨٩).

تكونت الصورة الأولى عن المهاجرين الشوام الذين دخلوا البرازيل بجوازات سفر عثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولذلك ظن الكثير من البرازيليين أن هؤلاء المهاجرين أتراك مسلمون. نبع هذا المفهوم الخاطئ عن اختلاط شديد وُجِدَ في المجتمع البرازيلي بين الجنسية التي هي شيء إداري يرجع إلى الخريطة السياسية للبلاد التي جاء منها المهاجرون من ناحية، وبين الهوية العربية التي ترجع إلى الثقافة واللغة من ناحية أخرى. وإذا كان هذا الفرق واضحاً وبديهياً للعرب والأتراك على حد سواء، فقد كان مبهماً في البرازيل وفي بقية دول الأمريكتين التي تقبلت عدداً كبيراً من المهاجرين الشوام في الفترة نفسها. وفي جميع هذه البلدان عُرف المهاجرون بالأتراك (Turks في أمريكا الشمالية، وTurcos في أمريكا اللاتينية). وبما أن الأتراك كانوا مسلمين، فلا بد أن يكون هؤلاء الوافدون أيضاً مسلمين. هذه بالطبع مفارقة، حيث كان الكثيرون من المهاجرين الشوام مسيحيين هربوا من اضطهاد موظفي الدولة العثمانية للأقليات الدينية.

بالإضافة إلى هذا المفهوم الخاطئ عن أصل المهاجرين العرب ودينهم، تكون عنهم انطباع آخر نبع من اشتغال الكثير منهم بالتجارة ومهارتهم فيها: البائع المتجول والتاجر البخيل الذي لا يرحم الفقراء،

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

وهي صورة يتكرر ورودها في الأدب البرازيلي. ولم تنطبق هذه الصورة على جدِّ ألبرتو موسى الذي كان شاعراً، غزير الثقافة، يغصُّ البيت بكتبه، ولا على والد جدِّه الذي أسس مدرسة واقتنى أكبر مكتبة في لبنان، على حسب الصورة الثانية المنعكسة في مرآة الأسرة. علّم الجدُّ حفيده ألبرتو تمييز آثار الحضارة العربية في كثير من جوانب الحياة في البرازيل، بما في ذلك المفردات العربية المستعملة في اللغة البرتغالية. ومع أن الجد أسهب في الحديث عن جمال اللغة العربية، فهو لم يحاول أن يُعلمها حفيدَه، بل شجعه – على العكس – على إتقان اللغة البرتغالية بصفتها جزءاً أساسياً من هويته البرازيلية. ويعلق ألبرتو موسى على ذلك بالإشارة إلى العدد الكبير نسبياً من اللغويين البرازيليين المبرزين المنحدرين من أصل عربي مثل أنطونيو حويس Antônio Houaiss صاحب المعجم الكبير وسعيد علي Said Ali وإيڤانيلدو بشارة Evanildo Bechara، وكأنهم أخذوا بنصيحة جده. وبالتالي، وبرغم افتخار الجد بالحضارة العربية، لم يشعر ألبرتو موسى حينذاك بأنه عربي لعدم معرفته باللغة العربية. أي أن هذه المرآة الثانية لم تعكس بدورها صورة استطاع ألبرتو موسى في مطلع مراهقته أن يتمثلها.

أما الصورة الثالثة المأخوذة عن مرآة الكتب، فكانت بدورها ذات ثلاثة أبعاد. أولها، التاجر المهاجر الموصوف خطأً بالتركي والماهر في التجارة والمساومة، أي القالب الجامد المذكور سابقاً في التصور الشعبي البرازيلي وانعكاساته الأدبية. وثانيها، صورة العرب التي تجسدت في كتاب **ألف ليلة وليلة** وفي روايات ملبا طحان، الذي افتتن بالحضارة العربية عامة، وبإنجازاتها في الرياضيات والجبر بصفة خاصة، وألّف سلسلة طويلة من الروايات والقصص الرائجة منها **الرجل الحاسب** *O homem que calculava* (١٩٤٩) و**سليم الساحر** *Salim o mágico* (١٩٧٠). ولكن بقي هذا العالم بدوره غريباً عن ألبرتو موسى حيث لم يستطع أن يرى نفسه فيه.

أما بُعد الصورة الأدبية الثالث فلم يظهر سوى في السبعينيات من القرن الماضي في أعمال كُتَّاب من أصل عربي على رأسهم رضوان نصار صاحب رواية **المزرعة القديمة** *Lavoura arcaica* (١٩٧٠) التي تدور أحداثها حول أسرة من أصل عربي، ثم ميلتون حطوم صاحب روايتي **حكاية شرق ما** *Relato de um certo Oriente* (١٩٨٩) و**شقيقان** *Dois irmãos* (٢٠٠٠) والمترجمة إلى العربية،[٤] وسليم ميجل مؤلف رواية **نور في الظلمة** *Nur na escuridão* (٢٠٠٤) التي تصف وصول أسرة الكاتب إلى البرازيل في عام ١٩٢٧. هذا بالإضافة إلى

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

كتّاب من أصول غير عربية مثل آنا ميراندا وأنجيلا دوترا دي مينيزيز اللتين ألّفتا روايات أخرى عن الهجرة العربية إلى البرازيل.[٥] شكلت أعمال هذه المجموعة من الكتّاب مرآةً أكثر صدقاً عن تجربة الجالية العربية في البرازيل استطاع ألبرتو موسى أخيراً أن يرى نفسه فيها.

ولكن ألبرتو موسى – بوصفه كاتباً – لا ينتمي إلى هذه المجموعة بالتحديد، فهو يشكل وحده بُعْداً فريداً. فإذا كان سليم ميجيل وميلتون حطوم ورضوان نصار كتبوا عن تجربة آبائهم من جيل المهاجرين، وعن الصراع الثقافي بينهم وجيل أبنائهم الذين نشأوا في البرازيل، أيْ الجيل الثاني من الجالية العربية–البرازيلية، فإن ألبرتو موسى ينتمي إلى الجيل الثالث، أي جيل أحفاد المهاجرين، وتنطبق عليه مقولة إن الحفيد يحاول تذكر ما سعى أبوه إلى نسيانه، أي أن الجيل الثاني يسعى جاهداً إلى التحرر من تأثير الأبوين اللذين يريدان في كثير من الأحيان فرض عاداتهم وتقاليدهم الغريبة عن المجتمع الذي ينشأ فيه الأبناء ويسعون إلى الانتماء إليه. بينما يسعى الجيل الثالث – على العكس – إلى استكشاف الماضي والتعرف من جديد على ميراثه الثقافي المتجسد في الأجداد، وكأن الالتصاق بالجد هو نوع من التمرد الأزلي على الأب الذي أشار إليه سيجموند فرويد. أو لعل البعد الزمني الفاصل بين الجيلين، الأول والثالث، يصور جذور الأحفاد الثقافية على أنها ألغاز يجب فهمها، بعد أن كانت بمثابة أثقال وأغلال في نظر الجيل الثاني.

عبّرت عن هذا المفهوم أعمال ألبرتو موسى التي استلهم فيها التراث العربي، في رواية **لغز القاف** وفي ترجمته للمعلقات. يصف ألبرتو موسى اكتشافه المعلقات أثناء رحلة إلى لبنان قام بها في منتصف الثلاثينيات من عمره، وبعد وفاة والده وجده بمدة طويلة، بأنه أهم حدث أدبي في حياته. الرحلة بحد ذاتها لها مغزى مهم، لأنه سافر إلى بيروت بحثاً عن تاريخ أسرته وأقاربه الذين لم يتعرف عليهم من قبل، وكأن هذه العودة إلى ماضي أسرته الخاص اقترن في ذهنه بالعودة إلى ماضي الحضارة العربية بأجمعها. عندما قرأ المعلقات في ترجمتها الإنجليزية، ثم في ترجمات إلى لغات أخرى ألمَّ بها، وجد ألبرتو موسى عالماً استطاع – على حد تعبيره – أن يتوحد معه: عالم الفروسية وقيم البداوة مثل «الكرم، البلاغة، النبل، الشجاعة، الكبرياء، الوفاء، الزهد، الحكمة، حب المتعة، اللامبالاة بالثروة – كل هذا مجسد في لغة شعرية بديعة – جعلني أرى في هؤلاء الأبطال نماذج تصورت نفسي من خلالها» ("Who is Facing the Mirror?"، ص ١٩٥). قرر موسى عندئذ أن يشرع في تعلم اللغة العربية لكي يقرأ المعلقات بلغتها الأصلية وأن يلتهم، على حد تعبيره، كتب تاريخ العصر الجاهلي.

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

وبهذا الاكتشاف بدأت مرحلة جديدة عربية في حياة الكاتب؛ فبعد أن كان قد أمضى خمسة عشر عاماً في دراسة تاريخ البرازيل ولغات سكانه الأصليين ولغات الشعوب الأفريقية وثقافاتها التي وفد العديد منها إلى البرازيل (وهي دراسات أثمرت عن أول كتابين له عن التأثير الأفريقي في البرازيل)، انصرف ألبرتو موسى – الآن – إلى اللغة العربية وأدبها وإلى التاريخ العربي، وهي المرحلة التي أنتج فيها ترجمته للمعلقات ورواية **لغز القاف** التي ألتفت إليها الآن بالعرض السريع.

لغز الجذور

لعل أول ما يلحظه المهتم بأدب الجاليات العربية في الأمريكتين هو خروج ألبرتو موسى عن قاعدة شبه ثابتة، وهي تركيز غالبية كتَّاب هذه الجالية من أبناء الجيل الأول والثاني على تجربتهم في المجتمعات التي استقروا بها منذ نهاية القرن التاسع عشر. يتضح هذا في أول رواية عربية–أمريكية ألا وهي **كتاب خالد** (١٩١١) لأمين الريحاني التي تصور رحلة بطليها خالد وشكيب من لبنان إلى نيويورك، وحياتهما فيها لعدة سنوات، ثم عودتهما إلى لبنان.(٦) وكأن هذه الرواية أسست نهجاً أو قاعدة لم ينشق عنها إلا القليل من الكتَّاب بعد الريحاني سواء في أمريكا الشمالية أو الجنوبية، وهي أن أدب الجاليات العربية في المهجر يعالج في الغالب تجربة الهجرة والتأقلم في المجتمعات الجديدة. لا يصعب فهم السبب في ذلك، فتجربة الانخلاع عن مجتمع عربي له ثقافته ولغته وعاداته إلى مجتمع آخر مخالف له في كثير من النواحي أمر صعب ومعقد، كما تدل على ذلك الدراسات الاجتماعية والتاريخية والأنثروبولوجية العديدة التي أسهبت في الحديث عن المشاكل التي واجهها المهاجرون.(٧) وبطبيعة الحال، شكلت تلك الصعوبات حقلاً خصباً لنتاج الجيلين الأول والثاني الأدبي من عرب المهجر، وندر أن يهتم كاتب أو كاتبة بفترة سابقة على القرن العشرين حتى خرج ألبرتو موسى ابن الجيل الثالث بروايته التي تدور أحداثها في العصر الجاهلي.

تنقسم الرواية إلى خمسة وخمسين فصلاً موزعة على ثلاثة أقسام: ثمانية وعشرون فصلاً رئيساً معنونة بحروف الأبجدية العربية، يتخللها بالتتابع سبعة وعشرون فصلاً تنقسم بدورها إلى قسمين: «استطرادات» excursos و«مؤشرات» parâmetros. تتناول الاستطرادات وجوه الحياة والمعارف والأساطير والقصص المذكورة في كتب تاريخ العصر الجاهلي، أما المؤشرات فيعرض كل منها ترجمة شاعر جاهلي معروف. لا تشكل الفصول الاستطرادية والمؤشرات جزءاً من حبكة

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

الرواية، وإنما هدفها رسم صورة مفصلة للبيئة الثقافية والشعرية في الجزيرة العربية خلال القرنين السابقين على ظهور الإسلام، وهي البيئة التي تنطلق فيها أحداث الرواية المسرودة في الفصول الرئيسة المعنونة بحروف الأبجدية العربية الثمانية والعشرين. بل إن الكاتب يعلن في «التحذير» (بدلاً من التصدير المعتاد) أن باستطاعة القارئ أن يقرأ الفصول الرئيسة فقط إن كان يرغب في تسلية نفسه بقصة مغامرات مثيرة، أو أن يقرأ أيضاً الفصول المؤشرات إن أراد التعرف على الثقافة العربية قبيل الإسلام، أو أن يقرأ هذه وتلك بالإضافة إلى الفصول الاستطرادية والعبارات المقتبسة التي تتصدر الفصول الرئيسة إن كان يجسر على محاولة حل لغز القاف قبل الانتهاء من قراءة الرواية (ص ١٠، وكل الاستشهادات الواردة تحيل إلى الأصل المكتوب بالبرتغالية).

وبهذا الهيكل الفريد يقدم ألبرتو موسى روايته بوصفها رسالة حب أو إيماءة إجلال للغة القاف التي هي لغة أجداده الذين نشأ بعيداً عن بيئتهم؛ فالرواية إذن تعبير عن رغبة قوية في التقارب مع ثقافة مفقودة وفي اكتشاف جذور ضاربة في القدم. لهذا أيضاً عبَّر ألبرتو موسى عن هذا البحث عن الجذور مجازاً بلغز هو لغز القاف الذي تدور حوله حبكة الرواية. وكما يشير الروائي البرازيلي أنطونيو توريس Antônio Torres في كلمته المطبوعة على غلاف الرواية، هذا اللغز هو لغز اللغة العربية نفسها، «أصلها ومعارفها وبداوتها وحريمها وأرقامها الحسابية وكتاباتها»، فضلاً عن لغز «الروايات المتعددة لقصة أحياناً ما تكون غير قابلة للتصديق، مما يزيد من سحرها». يلفت توريس نظر القارئ أيضاً إلى البعد البورخيسي لهذا العالم الروائي – عالم الألغاز والمتاهات والكتب القديمة والرموز الغريبة – وإلى ارتباطه في الخيال الاستشراقي الغربي بسحر الشرق المزعوم. ومن المعروف أن كل هذا له علاقة قوية بتأثير **ألف ليلة وليلة** الكبير في تكوين بورخيس الأدبي وفي أدب أمريكا اللاتينية بشكل عام، وبخاصة حركة الواقعية السحرية. ففي **لغز القاف** إذن تلتقي هذه المؤشرات المباشرة من الأدب العربي الجاهلي والرواية المعاصرة في أمريكا اللاتينية المتأثرة بدورها بالأدب العربي وبآداب أوروبا. وكأن دائرة العلاقات الأدبية بين العالم العربي وأمريكا اللاتينية تنغلق برواية برازيلية يدَّعي بطلها أنه أضاف إلى الأدب العربي، كما سأوضح لاحقاً. تدور هذه الرواية في العصر الجاهلي، وتمزج الأساطير العربية القديمة بالوعي والحساسية الأدبية الحديثة في أمريكا اللاتينية.

يمكن القول إن هذا المزيج والتوفيق syncretism بين الحضارات المختلفة الذي هو طابع ثقافة أمريكا اللاتينية المميز يشكل – في

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

الوقت نفسه – لغز الهوية في العالم الجديد بصفة عامة والجالية العربية بشكل خاص. وليس من الغريب، إذن، أن يكون الراوي في **لغز القاف** باحثاً برازيلياً حفيد جدٍّ لبناني مهاجر. كان هذا الجد أديباً، مثل جدِّ ألبرتو موسى، وإن كان الراوي – بطبيعة الحال – يختلف عن الكاتب. تستبد بالراوي فكرة غريبة، وهي أن قصيدة مجهولة كان جده ينشد له منها في طفولته مقاطع باللغة البرتغالية ما هي إلا معلقة ثامنة مفقودة من دواوين الشعر الجاهلي، قائلها شاعر يُسَمَّى الغطاش، ينتمي إلى قبيلة اللبوءة التي يعتقد الجد أن نسبه يعود إليها. وبعد وفاة الجد يشب الحفيد ليدرس اللغة العربية والأدب الجاهلي ويحاول إثبات نظريته التي يتخذ منها موضوع رسالة ماجستير أو دكتوراه على ما يبدو. يسافر الراوي إلى القاهرة وبيروت ليعرض القصيدة على علماء الشعر العربي ونقاده الذين يرفضون نظريته بالطبع، على أساس أن المعلقة المزعومة المسماة «قافية القاف» (بتعبير الراوي) لا ذكر لها ولا لشاعرها في كتب الشعر القديم. يطالب هؤلاء العلماءُ الراويَ بالكشف عن مصادره، مما يجبر الراوي على الاعتراف بأن لا مصادر له سوى ذاكرة جده نجيب: «تعلمت جوهر القصيدة من جدي. أما بقيتها، تلك الفقرات التي لم تحفظها ذاكرة نجيب العجوز، فقد استعدتها من الأساطير وجميع أنواع الحقائق التي استطعت أن أجمعها خلال ارتحالي في الشرق الأوسط» (ص ١٣). ويضيف الراوي موضحاً: «شرحت لهم أن النص أعيد إنشاؤه من القصيدة الأصلية وأنه بذلك ليس أقل صحة من لوحة أو تمثال أو أثر رممته يد المرمم» (ص ص ١٢–١٣).

بطبيعة الحال، عُدَّت القصيدة مزورة ورفض الناشرون نشرها، واتهم مؤرخ أدبي مشهور الراوي بأنه أكبر مزيف في تاريخ الدراسات السامية. وفشل الراوي في محاولته الدفاع عن نفسه، حيث لم يقبل أحد ادعاءه بأنه لم يفعل أكثر من أن رمم القصيدة. وإن كان هذا التفسير هشاً من منظور تأريخي وضعي أو يقيني، فهو في نظر الراوي لا يخلو من الصحة، على أساس أن القصيدة في جوهرها وعالمها الخاص وصورها ورموزها تنتمي إلى البيئة الجاهلية، وأن مسألة الحقيقة الأدبية ينبغي في رأيه فصلها عن الحقيقة التاريخية. وهذه في الواقع إشكالية إبستيمولوجية قديمة تمثلت في طرد أفلاطون الشعراءَ من جمهوريته الفاضلة بدعوى أنهم كاذبون. يُلمح الراوي إلى هذه الإشكالية في نبذة مقتبسة ينسبها إلى شهرزاد ويصدر بها الفصل الأول، فصل الألف: «عندما أكذب كذبة، ألا أكون بذلك استعدت حقيقة أقدم منها؟» (ص ١١). ففي رأي الراوي، إذن، لا يتضح الفرق بين الحقيقة والكذب بالمرّة، فالحقائق دائماً ما تكون مشوبة بالكذب والعكس بالعكس. وبالتالي،

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

فقافية القاف وإن كان ظاهرها منتحل فجوهرها صحيح، تماماً كما هو الحال مع الآثار والأعمال الفنية المرممة.

ومع ذلك تظل محاولة الراوي عجيبة، فهو ينتحل قصيدة لا يدعي فقط أنها جاهلية، على شاكلة منتحلي الشعر الجاهلي المعروفين مثل حماد الراوي وخلف الأحمر، بل إنها معلقة مفقودة ضاعت لأكثر من أربعة عشر قرناً حتى اكتشفها هو في البرازيل. وهذه المحاولة كيخوتية بمعنى الكلمة، أيْ يشوبها الهذيان والجنون الذي يصيب قارئاً مهووساً بنوع أدبي بائد وعالم رومانسي مندثر، مثل بطل رواية سيرڤانتيس المعروفة. يتضح ذلك الاختلال من وثوقية آرائه، ومفادها أن العصر الجاهلي كان «العصر الذهبي لشعراء الصحراء الذين ارتفعوا بالشعر إلى قمم لم يرتقِها أحد في أية لغة وفي أي عصر» (ص ١٢). فهو على يقين تام من أن الشعر الجاهلي لا يمثل قمة الأدب العربي وحسب، وهو أمر قد لا يكون موضع اختلاف، ولكنه أيضاً قمة الشعر في أية لغة على الإطلاق – وهو أمر لا شك أن الراوي لا يملك البرهان عليه! فمن باستطاعته أن يُطلق حكماً كهذا إن لم يكن درس لغات العالم كلها وعرف أشعارها معرفة دقيقة؟ وأيُّ بشر يستطيع ذلك؟ وإن كان ذلك الحكم من قبيل المبالغة، فهو بلا ريب مجازفة بالرأي غير متوقعة، ولا تليق بباحث أكاديمي متخصص يُفترض فيه توخي الحذر والدقة.

ومثل دون كيخوته يُلم الراوي إلماماً شاملاً ومفصلاً بنوعه الأدبي المفضل، حيث يقول:

> كانت هذه الرغبة في استعادة الشظايا الضائعة وإضفاء الشكل المكتوب على القافية دافعي إلى تعلم اللغة العربية الفصحى والعبرية، بالإضافة إلى اللهجات السريانية، بل وأيضاً منقوشات لهجة اليمن البائدة. كما انغمست في علم آثار الشرق الأوسط، وانكببت على جغرافية صحراوات الشام وشبه الجزيرة العربية، ودرست إثنوغرافية البدو، وحفظت الشعر الجاهلي عن ظهر قلب.
>
> ولكن لما كرست نفسي لدراسة علم النجوم بصورته البدائية التي ظهر بها عند الكلدانيين، عندئذ فقط استطعت إعادة نظم القصيدة الأصلية والتوصل إلى حل لغز القاف. (ص ص ٢١–٢٢)

أما ذلك اللغز فيتعلق بإشارة غامضة في القصيدة إلى جبل أسطوري يسمى القاف، وعفريت أحول العينين، إحداهما عمياء، يستطيع الترحال

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

عبر العصور، وقصة حب الغطاش لليلى التي يقتفي أثر قبيلتها، بمساعدة كاهنة عرجاء تدله على نقش قديم غامض المعنى يجب عليه أن يفسره كي يصل إلى غايته. إنها قصة شبه بوليسية، أو بالأحرى بورخيسية، تنتهي إلى فك رموز غريبة تنتمي إلى عالم معرفي زائل. فحل اللغز، إذن، هو استعادة الماضي والتواصل معه، بل أكثر من ذلك، إثبات عروبة أعمق وأوطد من عروبة اللسان والمنشأ (وهي صفات لا يمتلكها الراوي)، ألا وهي عروبة الدم والنسب التي لا تُمحى. وكأن الراوي في انتحاله قافية القاف وحل لغزها المزعوم قد فعل ما فعله منتحلو الشعر الجاهلي في أوائل العصر الإسلامي الذين أضافوا الأشعار إلى قبائلهم من قبيل العصبية، كما أشار طه حسين وغيره (حسين، ص ص ١١٦–١٣٢ وضيف، ص ص ١٦٤–١٧٥).

وبما أن علماء الشعر رفضوا الاعتراف بالقصيدة المنتحلة، أو المرممة كما يصر الراوي، فهي تتحول إلى رواية، ويتحول منتحلها أو مرممها من شاعر إلى راوٍ، ويصبح موضوع القصيدة حكاية مزدوجة هي حكاية الغطاش وحكايَة الراوي، كما يصبح لغز القاف أيضاً لغزين: اللغز الأصلي الذي يحلّه الغطاش ولغز الغطاش الذي يحلّه الراوي. وكذلك تنبثق عن قصة حب الغطاش لليلى قصة حب الراوي للشعر الجاهلي واللغة العربية. فالترميم، إذن، عمل إبداعي في حد ذاته، لا يعيد القصيدة إلى صورتها الأصلية العربية الضائعة إلى الأبد، وإنما يعكس هذه الصورة في مرآة الحاضر الروائي البرازيلي، أو البرازيلي–العربي بالتحديد، ويكون بذلك عملاً مزدوجاً يتحدث عن قصتين وبطلين وعصرين وثقافتين في آن واحد.

تنطوي هذه الازدواجية على رغبة البرازيلي–العربي الشديدة في التواصل مع العالم العربي، وهي رغبة يصاحبها شك في إمكان تحقيق ذلك، وقلق أو خوف من أن تُقَابل محاولته بالرفض والصد والتنكر من طرف مَن أراد أن يتواصل معهم – تماماً كما يستنكر علماء الشعر محاولة الراوي إدخال نفسه في تاريخ الأدب العربي. وإن كانت تلك المحاولة كيخوتية، فجنونها جنون العشق الطاغي والرغبة الجارفة في الانتماء والتواصل. فالراوي مجنون وليلاه المنشودة مستحيلة المنال، تومئ إليه وتصده في الوقت نفسه. إن لغز الهوية العربية–البرازيلية عند ألبرتو موسى هو هذه الرغبة في الانتماء المشوبة بالقلق من إمكان الصد والرفض. يتبقى، إذن، على الأدباء والمثقفين والنقاد العرب أن يبادلوا تلك الرغبة في التواصل بالمثل، وأن يحتضنوا أدب الجاليات العربية في المهجر، وأن يغتنموا هذه الفرصة لتوثيق العلاقات مع شعوب أمريكا اللاتينية بأجمعها.

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

الهوامش

(١) انظر الموقع الإلكتروني للقمة:
www2.mre.gov.br/aspa/english.html
ولم يحضر للأسف معظم الرؤساء والملوك العرب تلك القمة تحسباً في ظاهر الأمر من إغضاب الولايات المتحدة.

(٢) راجع ترجمة محمد أبو العطا لمقالة بورخيس بالعربية في مجلة **فصول**.

(٣) لمراجعة شاملة لأدب المهاجرين في أمريكا الشمالية، انظر el Maleh وكتابي المتوقع صدوره عن دار أكسفورد الجامعية للنشر في ٢٠١١ *Immigrant Narratives: Orientalism and Cultural Translation in Arab-American and Arab-British Literature*.

(٤) للمزيد عن حطوم، راجع مقالة Luxner.

(٥) راجع مثلاً رواية ميراندا *Amrik* ورواية دي مينيزيز *Mil anos menos cinquenta*.

(٦) راجع مقالتي بعنوان "The Rise of Arab-American Literature".

(٧) انظر على سبيل المثال أعمال:
Nabeel Abraham and Sameer Abraham; Abu-Laban and Suleiman; Hooglund; Karam; McCarus; and Orfalea.

المراجع العربية

بورخيس، خورخي لويس. «مترجمو **ألف ليلة وليلة**». ترجمة محمد أبو العطا. **فصول**، مجلد ١٣، عدد ٢ (صيف ١٩٩٤): ص ص ٣٠٩–٣٢٢.

حسين، طه. **في الأدب الجاهلي**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩ [١٩٢٧].

حطوم، ميلتون. **شقيقان**. ترجمة صفاء أبو شهلا جبران. بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٢.

ضيف، شوقي. **العصر الجاهلي**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٦ [١٩٦٠].

المراجع الأجنبية

Abraham, Sameer and Nabeel Abraham, eds. *Arabs in the New World: Studies on Arab-American Communities*. Detroit: Wayne State U, 1983.

Abu-Laban, Baha and Michael Suleiman, eds. *Arab Americans: Continuity and Change*. Belmont, MA: Association of Arab-American University Graduates, 1989.

Ahmad, Aijaz. "The Politcs of Literary Postcoloniality." *Race & Class* 36.3 (1995): 1-20.

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

Amin, Samir. *L'eurocentrisme: Critique d'une idéologie*. Paris: Anthropos, 1988.

ASPA - Summit of South American-Arab Countries. <www2.mre.gov.br/aspa/english.html>.

Borges, Jorge Luis. "Los traductores de las 1001 Noches." *Obras completas*. Buenos Aires: Emecé Editores, 1974. 397-413.

Hassan, Waïl. *Immigrant Narratives: Orientalism and Cultural Translation in Arab-American and Arab-British Literature*. NY: Oxford UP, 2011 (forthcoming).

_____. "The Rise of Arab-American Literature: Orientalism and Cultural Translation in the Work of Ameen Rihani." *American Literary History* 20.1/2 (Spring/Summer 2008): 245-75.

Hatoum, Milton. *Dois irmãos*. São Paulo: Companhia das Letras, 2000.

_____. *Relato de um certo Oriente*. São Paulo: Companhia das Letras, 1989.

Hooglund, Eric, ed. *Crossing the Waters: Arabic-Speaking Immigrants to the United States Before 1940*. Washington, DC: Smithsonian Institute P, 1987.

Huntington, Samuel. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*. NY: Simon & Schuster, 1996.

Karam, John Tofik. *Another Arabesque: Syrian-Lebanese Ethnicity in Neoliberal Brazil*. Philadelphia: Temple UP, 2007.

Luxner, Larry. "The Brother from Manaus." *Saudi Aramco World* 58.5 (September/October, 2007): 10-13.

el Maleh, Layla. "Anglophone Arab Literature: An Overview." *Arab Voices in Diaspora: Critical Perspectives on Anglophone Arab Literature*. Ed. Layla El Maleh. Amsterdam: Rodopi, 2009. 1-63.

McCarus, Ernest. *The Development of Arab-American Identity*. Ann Arbor: U of Michigan P, 1994.

de Menezes, Angela Dutra. *Mil anos menos cinquenta*. Porto: Civilização Editora, 1995.

Miguel, Salim. *Nur na escuridão*. Rio de Janeiro: Topbooks, 2004.

Miranda, Ana. *Amrik*. São Paulo: Companhia das Letras,1997.

Murguía, Verónica. "My Unknown Forefathers." *ArabAmericas: Literary Entanglements of the American Hemisphere and the Arab World*. Eds. Ottmar Ette and Friederike Pannewick. Madrid: Iberoamericana/Frankfurt am Main: Vervuert Verlag, 2006.159-64.

Mussa, Alberto. *Elegbara: Narrativas*. Rio de Janeiro: Editora Revan, 1997.

_____. *Meu destino é ser onça*. Rio de Janeiro: Editora Record, 2009.

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions

_____. *O enigma de Qaf*. Rio de Janeiro: Editora Record, 2004 [available in English translation: *The Riddle of Qaf*. Trans. Lennie Larkin. Laverstock, UK: Aflame Books, 2008].

_____. *O movimento pendular*. Rio de Janeiro: Editora Record, 2006.

_____. *O trono da rainha Jinga*. Rio de Janeiro: Editora Nova Fronteira, 1999.

_____ (tradução). *Os poemas suspensos: Poésia árabe pré-islâmica*. Rio de Janeiro: Editora Record, 2006.

_____. "Who is Facing the Mirror?" *ArabAmericas: Literary Entanglements of the American Hemisphere and the Arab World*. Eds. Ottmar Ette and Friederike Pannewick. Madrid: Iberoamericana/Frankfurt am Main: Vervuert Verlag, 2006. 189-96.

Nassar, Raduan. *Lavoura arcaica*. São Paulo: Companhia das Letras, 1975.

Orfalea, Gregory. *The Arab-Americans: A History*. Northampton, MA: Olive Branch P, 2008.

Tahan, Malba. *O homem que calculava*. Rio de Janeiro: Conquista, 1949.

_____. *Salim o mágico: Romance oriental sírio-libanês*. São Paulo: Instituição Brasileira da Difusão Cultural, 1970.

This content downloaded from 130.126.32.13 on Sun, 31 Mar 2013 19:49:45 PM
All use subject to JSTOR Terms and Conditions